



اسم المقال: السخرية عند البوصيري

اسم الكاتب: د. محمود سالم محمد

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/2802>

تاريخ الاسترداد: 2026/04/12 20:24 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



السخرية عند البوصيري

د. محمود سالم محمد*

الملخص

عرف البوصيري بأنه شاعر المدائح النبوية الأول، وبأنه صوفي ملتزم بتوجه الصوفية، وبدا من نبوياته رجلاً متديناً جاداً متقطعاً عن حياة الناس معرضاً عمّاً يتهاكون عليه.

لكن البوصيري نظم في موضوعات الشعر المختلفة ومنها الهجاء والشكوى ووصف الحال. وقد أدى هذه الموضوعات بطريقة ساخرة لأنَّ السخرية مؤلمة في الهجاء، ولأنَّها تبعد الضجر عن الشكوى.

وجاءت سخريته مرة حيناً، ومرحة حيناً آخر، أعطت لشعره قبولاً عند المتلقين، وأبعدت عنه التقليد، ورفعت المستوى الفني لأدائه، وأضفت عليه شيئاً من الجودة.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Irony in the Poetry of Albusiri

Dr. Mahmoud Salem Mohammed**

Abstract

Albusiri was known as the top poet in prophet praise poems and as a committed Sufi. He seemed as a serious religious man from his prophet praise poems. The poems also revealed that he was a solitary man not living the life of ordinary people and not interested in what they were seeking. However, Albusiri wrote various poetic genres including satires, complaints and descriptions of present conditions. He wrote in an ironic tone because irony is bitter in satire and because it also keeps boredom out of such complaining poems.

His irony was bitter at times and funny at others. This made his poetry well-received by the recipients and difficult to imitate, have an increased technical level, and added a touch of seriousness.

** Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language

اشتهر البوصيري بأنه شاعر المدائح النبوية الأول في التراث الشعري العربي، وعرف بتوجهه الصوفي، فتكونت له صورة في النفوس، بدا فيها زاهداً منقطعاً إلى العبادة، مترفعاً عن شؤون الحياة الدنيا، لا يمدح كبيراً، ولا يتزلف إلى ملك، جاداً لا يقترب من المرح، متسامحاً لا يؤذي أحداً.

لكن هذه الصورة ليست صحيحة، فقد مدح السلاطين والأمراء، وألح في طلب المال منهم، وشكا الفقر والغبن، وخاض في أمور الدولة وانتقد عمالها، وهجا من انتقد شعره ومن ظن أنه قصر في حقه. واستخدم السخرية في هجائه ونقده وشكواه، وقدم نفسه في هيئة مضحكة تثير الشفقة.

واتبع في سخريته طرائق مختلفة، منها الوصف والتصوير والتشبيه، ومنها القص والحوار، ومنها المبالغة والمفارقة وقلب المفاهيم، ومنها إنطاق الجماد والحيوان. وأدى سخريته بأسلوب مغاير لشعره الديني، اتسم بالبساطة والوضوح، وبالميل إلى الشعبية في العبارات والألفاظ.

وكأن البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنه عاش اغتراباً، دفعه إلى التصوف والسخرية معاً.

ميله إلى السخرية:

أظهر البوصيري¹ في شعره وأخباره ميلاً واضحاً نحو السخرية، دفعته إليها مجموعة أسباب تتعلق به وبمجتمعه وظروف حياته. أولها تكوينه الجسدي والنفسي، فقد كان قصيراً نحيفاً، تقتحمه العين، وأشار إلى ذلك في رده على شاعر انتقصه بقوله:²

ورب أديب ذي لسان كمبرد	بدا من فم كالكير أو هو كير
إذا ما رأني عافني واستقلني	كأني في قعر الزجاج سور ³
ويعجبه أنني نحيف وأتفه	سمين يسر الناظرين طرير ⁴

¹ محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المغربي (608 . 696هـ): الوافي بالوفيات، ص: 3-105.

² ديوان البوصيري: ص: 148.

³ سور، سور: بقية الشراب في الكأس.

⁴ فوات الوفيات: ص: 3/368.

وُلِّي فوق ذلك بالشيخوخة وأمراضها، فكان كثير العلل، كثير الشكوى من انحراف صحته، وقد أقعده المرض غير مرة، ومن هنا جاءت قصة نظمه لقصيدته الباردة، التي أشارت إلى علة طالت عليه، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، يتقاضاه المديح، فلما نظمها بريء من علته⁵.

وأغمي عليه مرة مدة طويلة، فأشاع الناس موته، وبعد شفائه رد عليهم بقوله:⁶

عاش بعد موته البوصيري وحياة الكلاب موت الحمير

وأورثه المرض ضيق الصدر، فلم يكن يحتمل إهانة أو تقصيرًا في حقّه، فكان يطلق لسانه في كل من يضايقه، ويستخدم الهجاء والتهديد به في الطلب إلى الناس، لذلك مقتوه وتحاشوه لسلطة لسانه. وصرح بأنه يخيف الناس بلسانه ويحتال عليهم في كسب رزقه، فقال:⁷

وأنصب أحيانًا شباك قناعة أصيد بها نونا وضبًا وجُنْدبا⁸

وثاني أسباب ميله إلى السخرية فقره وأسرته الكبيرة وافتقاده الانسجام مع زوجته، فلم يرزق الراحة في بيته، واتخذ أسرته وسيلة لاستدرار عطف الممدوحين، وللشكوى من سوء أحواله، فضلًا عن نشأته في أسرة فقيرة، اضطرتته إلى العمل صغيرًا في أعمال لا تدر عليه ما يكفيه. ولاحظ محقق ديوانه ذلك في شعره، فقال:⁹

"وكثيرًا ما يمزج البوصيري مدائحه بالدعابة المضحكة التي تترك أثرها في النفس، ويصور حياته وما فيها من ضيق وبؤس.. ويطنب في ذلك ليستدر عطف الممدوح".
وكرر الشاعر شكواه من أسرته وعجزه عن القيام بأمرها في مدائحه، مثل قوله لممدوحه:¹⁰

⁵- وطرير: شاب طر شاربه.

⁶- ديوان البوصيري: ص: 280.

⁷- المصدر نفسه: ص: 97.

⁸- النون: الحوت أو السمك

⁹- المصدر نفسه: ص: 39.

¹⁰- المصدر نفسه: ص: 166.

إليك نشكو حالنا إننا
عائلة في غاية الكثرة
إن شربوا فالبئر زيّر لهم¹¹
ما برحت والشربة الجرّه
لهم من الخبيز مسلوقة
في كل يوم تشبه النشرة¹²
أقول مهما اجتمعوا حولها
تتزهوا في الماء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم
قمح ولا خبز ولا فطره¹³

جاءت السخرية في شكواه من المبالغة في عدد أولاده وفي احتياجاتهم، ومن اختيار نبات الخبيزة طعاماً لهم، فاكتفى بسلقه ليكون عندهم نزهة بين الماء والخضرة، وما الماء إلا ماء السلق، وما الخضرة إلا نبات الخبيزة المسلوق. ووصف أولاده في مدحة أخرى، فقال:¹⁴

وكزغب القطا ورائي فراخ
من إناث أعولهم وذكور
يتعاون كالذئاب وينقضّ
ون من فرط جوعهم كالنصور

أنت السخرية في هذا الوصف من التناقض بين صغر الأولاد وضعفهم في البيت الأول، وشدتهم في طلب الطعام في البيت الثاني. فأين الفراخ الصغيرة الضعيفة من الذئاب والنصور؟

وصب نغمته من سوء حاله في بيته على زوجته الولود، فقال:¹⁵

وبليتي عرسٌ بليت بمقتها
والبغل ممقوت بغير قيام
بلغت من الكبر العتيّ ونكست
في الخلق وهي صبيّة الأرحام

¹¹ - الزير: الدن، ويطلق على وعاء كبير من الفخار.

¹² - الخبيزة: نبات أخضر، تطبخ أوراقه. والنشرة: نشرت الأرض: أصابها الربيع فأنبئت، والنشرة: النسيم.

¹³ - الفطرة: زكاة الفطر.

¹⁴ - ديوان البوصيري: ص: 156.

¹⁵ - المصدر نفسه: ص: 254.

إن زرتها في العام يوماً أنتجت
وأنت لستة أشهر بـغلام
أوهذه الأولاد جاءت كلها
من فعل شيخ ليس بالقوام
وأظن أنهم لعظم بليتي
حملت بهم . لا شك . في الأحلام

سخر البوصيري من نفسه ومن زوجته وأولاده في هذه الشكوى. فوصف نفسه بالبعث، وأشار إلى أنه عاجز جنسياً، ووصف زوجته بأنها طاعنة في السن وقبيحة، لكنها ظلت ولوداً. وبلغت سخريته مداها حين جعل الزوجة العجوز تلد كل ستة أشهر، وأنها حملت بأولادها في الأحلام. فهو يقلب الحقائق، ويتصل من مسؤوليته في كثرة الأولاد ليرسم البسمة على شفتي ممدوحه، وإن أساء لنفسه ولزوجته، فلم يخش التلميح إلى علاقته الحميمة مع زوجته، بل صرح بها في قوله:¹⁶

مَن لشيخ ذي علة وعيال
ثقلت ظهره بغير ظهير
وعتت أمهم عليّ ولجبت
في عتو من كبرتي ونفور
حسبت عنتي تزول، فقالت:
يا كثير التهوين والتهوير¹⁷
كل داء له دواء، فعجّل
بمداواة داء عضو خطير
قلت: مهلاً فما بلحم السقنقو
ر أداوى ولا بملح الدرور¹⁸
سقطت قوّة المريض التي كا
نت قديماً تُزاد بالكافور

هل يسلي ممدوحه بهذا الحديث الذي يكشف علاقته بزوجه؟ أو أنه يقدم حقيقة هذه العلاقة ليخفف عن نفسه معاناته معها؟ ثم ما هذا الحوار الذي يظهر رغبة الزوجة

¹⁶- المصدر نفسه: ص: 155.

¹⁷- التهوير: الغش.

¹⁸- السقنقور: من الزواحف الصغيرة، الدرور: ما ينز من الدواء.

المشروعة، وإن بدا جارحاً لها؟ إنه يسخر من نفسه لينتقم من واقعه إذا كان كلامه صحيحاً، وليس ادعاءً، يصطاد به جائزة الممدوح وعطاءه.

وتالت الأسباب لميله إلى السخرية علاقته مع أهل الدولة وأهل الأدب، فقد حاول العمل في الدولة، وعرضت عليه أعمال رفضها، وشغل أعمالاً من غير مؤهلات كافية، وسلط لسانه على الناس، فحاولوا التخلص منه، فهجأهم بسخرية قارصة، لأنَّ الهجاء بغيرها لا يليق بشاعر المدائح النبوية المتصوف، ويسقطه بين الناس.

عمل البوصيري في صباه كاتباً لشواهد القبور، وافتتح كتاباً لتعليم الصبيان، واشتغل كاتباً حاسباً، وعرضت عيه وظيفة الحسبة، فاعتذر عنها، وهجأها في قصيدة، صور فيها عمل المحتسب تصويراً ساخراً، فقال:¹⁹

لا تظلموني وتظلموا الحسبه فليس بيني وبينها نسيبه
أجلس والناس يهرعون إلي فعلي في السوق عُصبة عصبه
أوجع زيذا ضربا وأشتمه سباً كأنني مُرقص الدُّبّه
لم أر في فُبح فعلها حسنا كالكلب في السوق يُلقح الكلبه

رسم الشاعر مشهداً حركياً، فيه وصف قائم على التشبيه المفضي إلى التهجين والتقييح. فنشبهه عمل المحتسب بترقيص الدبة وتلقيح الكلب للكلبة يجعل العمل مستهجنًا قبيحًا، وكأنه يعرّض بالمحتسب القائم بالحسبة ولا يعتذر عن العمل فيها. فالاعتذار لا يحتاج إلى هذه السخرية الجارحة، ولا إلى هذا التهجين لوظيفة دينية اجتماعية. وكان يعتقد أن إهداءه شيئاً، أو مصانعته لاتقاء شر لسانه، أصبح أمرًا ثابتاً واجباً، وأي إخلال به يستوجب العقاب والهجاء. فعندما أهملته فئة من الكتاب في مناسبة، وأهدته فئة أخرى، قال:²⁰

أما ترى البغل وهو بغل في فضله يفضل الحمارا

¹⁹- ديوان البوصيري: ص: 99.

²⁰- المصدر نفسه: ص: 168.

فهجا بذلك الفئة المهملة والفئة المحسنة، لأن وصف الرجل بالبغل لا يقل سوءًا عن وصفه بالحمار، وإن فضل الحيوان الأول على الحيوان الثاني. وعندما عانده رجل مغربي في الشعر، تساءل ساخرًا:²¹

فَقُلْ لَنَا مَنْ ذَا الْأَدِيبِ الَّذِي زاد به حُبِّي ووسواسي
 إن كان مثلي مغربيا فما في صُحبة الأجناس من باس
 وإن يكذب نسبتي جئتُه بجُبَّتِي الصوف ودِقَاسِي²²

وهكذا كانت علاقاته بالناس تهديداً ووعيداً، وهجاءً ونقداً، وسخرية جارحة، تنم على شراسة في الخلق، لا تتوافق مع متصوف كان شاعر المدائح النبوية الأول. فعندما انتقد الشاعر ابن الرعاد²³ بعض شعره، رد عليه بقوله:²⁴

لقد عاب شعري في البرية شاعر ومن عاب أشعاري فلا بد أن يُهجى
 وشعري بحر لا يوافيه ضفدع ولا يقطع الرعاد يوماً له لجأ

وصف البوصيري الشاعر ابن الرعاد بالضفدع ليهون شأنه ويسخر منه، وأفاد من لقبه في تعميق هذه السخرية، مشيراً إلى ارتعاده وخوفه، فرد نقده رداً عنيفاً لا يتوافق مع النقد الشعري.

موضوعات سخريته:

تنوعت موضوعات سخريته، فشملت الهجاء والنقد، والشكوى من الفقر، وذكر الزوجة والأولاد، وذكر الطعام والحيوان مثل قوله في طلب حلوى الكنافة إلى قاض، يدعى عماد الدين:²⁵

²¹ المصدر نفسه: ص: 174.

²² لم يتضح معنى دقاس، ربما كانت لفظة مغربية تعني الحذاء ولم ترد في المعاجم.

²³ الرعاد: محمد بن رضوان بن إبراهيم الخياط، توفي على رأس السبع مئة. الدرر الكامنة، ص: 3/ 268.

²⁴ فوات الوفيات: ص: 3/ 367.

²⁵ ديوان البوصيري: ص: 174.

ما أكلنا في ذا الصيام كفافه آه وأبعد لها علي مسافه
قال قوم: إن العماد كريم قلت: هذا منكم حديث خرافه
أنا ضيف له، وقد مُتَّ جوعاً ليت شعري لِمَ لا تُعدّ الضيافه

استخدم البوصيري الهجاء في الطلب، وهذا أمر مستغرب، لأن الطلب يكون بالمدح والتذلل، وليس بالتعريض والسخرية، فوصف كرم القاضي بحديث خرافة، ونفى عنه أي احتمال للكرم، وربما وجد البوصيري أن الهجاء والتهديد به أجدي من المدح الذي قل العطاء عليه، ولكن المستهجن في حديث البوصيري هو اشتهاؤه لحلوى الكنافة والتأوه لبعدها عنه، فظهر بمظهر العاشق لها، ولم يأبه لجرح كرامته، فكيف يشتبه شاعر كبير كالبوصيري الحلوى بهذه الطريقة؟ ربما ذكرها ليسخر من القاضي، وليحثه على تقديمها له. ومثل ذلك قوله لوزير في حق القاضي نفسه:²⁶

إن العماد أرائنا بأنّه اليوم صائم
وليس يرجو ثواباً ولا يخاف مآثم
وليس يخفى عليه أن لا صيام لظالم
وصومنا في اتباع له صيام البهائم
فخذ لنا اليوم منه غداءنا وهو راغم

طمع البوصيري بحضور مآذبة القاضي الذي اعتذر بصيامه، فقدم الشاعر شكوى للوزير، عرض فيها بالقاضي تعريضاً شديداً، واتهمه بالرياء والظلم، وسخر من نافلته وورعه الظاهر، فأذاه من غير سبب يستحق عليه الأذى، فحديث الطعام عنده يفضي دوماً إلى الهجاء.

ومن شكواه الدالة على فقره والمتعلقة بالطعام قوله:²⁷

²⁶ - المصدر نفسه: ص: 256.

²⁷ - ديوان البوصيري: ص: 277.

جئت إلى الطبيب مشتكيا ودمعتي كالعوارض الهتته
 فقال: عُدْ لي إذا احتميت وكُلْ في كل يوم دجاجة دهنه
 كيف وصولي إلى الدجاجة واليب ضة عندي كأنها بدنه²⁸

إن ضعف قدرته على شراء طعام الحمية دال على فقره، وعد البيضة عنده بدنة سخرية من حاله، فالمبالغة في تقرير الأشياء البسيطة تؤدي إلى شيء من السخرية، لأنها تخرق المألوف بين الناس.

أما ذكره للحيوان فكثير في شعره، اتخذ وسيلة للدلالة على فقره، ولانتقاص خصومه، ولإضحاك متلقيه. ومن ذلك قوله من قصيدة يعرض فيها برجل يدعى ابن عمارة:²⁹

ماله ميزة عليّ سوى أنّ (م) له بغلة ومالي حماره

فجعل امتلاك حيوان الركوب مقياساً للتفاضل بين الناس، وبهذا المقياس حط من قيمة الرجل، ودل على فقره. وهو دائم المقارنة بين البغال والحمير، لأنّ البغال كانت مركوب أهل الفضل والغنى، وكانت الحمير مركوب الشعراء الفقراء.

ونظم البوصيري عدة قصائد في مهاجمة عمال الدولة ونقد أعمالهم، وقد خبرهم في أثناء عمله معهم، ونقم عليهم لأنهم أخرجوه من عمله بسبب افتقاره إلى المهارات اللازمة للحساب والكتابة. وقد اتخذ السخرية وسيلة في نقده لهم مثل قوله:³⁰

لو كنت أملك أمرهم من غيرتي لم أبق للمستخدمين ضروسا

يرعون أموال الرعيّة بالأذى لو يُحلبون لأشبهوا الجاموسا

يحتاج خيال المتلقي إلى تحليق ونشاط كبير ليتصور المستخدمين من غير أسنان تساعد على أكل أموال الناس، أو وهم يحلبون مثل الجاموس، وقد أفاد الشاعر من

²⁸ البدنة من الإبل والبقرة: الأضحية.

²⁹ ديوان البوصيري: ص: 131.

³⁰ المصدر نفسه: ص: 172.

كلمة (يرعون) التي تعني رعي الماشية في الحقل وأكلها للعشب، وتعني رعاية الشيء وحفظه وصونه. وهذه الهيئة التي رسمها البوصيري للمستخدمين مزرية ومضحكة معاً. وانتقل البوصيري في نقد المستخدمين إلى مجال آخر، حين وصف علاقة فئة منهم بفئة أخرى، فقال:³¹

إن خُلِقَ الشُّهود والعمال مثل خُلِقَ العُشاق والعُدال³²
كل عَدْلٍ مضايقٌ في وصول كعذولٍ مُضايقٍ في وصال
لست أدري معنى التباغض ما يبى من الفريقين غير حُبِّ المال

أبداع الشاعر في تشبيه خلق المستخدمين، وفي بيان التنافس بين الشهود والعمال حين انتقل به من التنافس والحسد في العمل إلى مشاهد المحبين والعذال، كل منهم يحرص على حرمان الآخر من السرقة. ولم تكن العفة والأمانة وراء هذه المنافسة، وإنما الحرص على أن تكون سرقة الأموال من نصيبه. وفي هذا التشبيه سخرية واضحة، وصل إليها البوصيري بهذا التشبيه الغريب المستمد من معرفته لشعر الغزل.

طرائق أداء السخرية:

اتبع البوصيري طرائق مختلفة في أداء سخريته. أولاها الوصف والتصوير والتشبيه، فكان يرسم مشاهد ساخرة من نفسه ومن مهجويه، كما فعل عندما صور نفسه في عمل الحسبة، ثم صور المحتسب القائم بعمله فقال:³³

وما يزال الغلام يتبعه بدرة مثل رأسه صُأبه
وهو يقول: افسحوا لمحتسب قد جاءكم من دمشق في عُأبه
فطار برغوثنه لِحَقْتَه ورام يحكي الأسود في الوثبه

³¹- المصدر نفسه: ص: 236.

³²- الشهود: جمع شاهد وهو من يجلس في المحاكم ليقرب الدعوى من الحكم الشرعي، ويقرب عمله من عمل المحامي هذه الأيام.

³³- ديوان البوصيري: ص: 100.

أغرّقه جهله وما سُتِرت قط له سُورَة ولا زُكِبَه
وعاد تمويهُه عليه وكم أُخجل شيبُ الذقون من خَضْبِه
وساعني ما جرى عليه من النَّس سوة يوم الخميس في التُّرْبِه
فلا تسلني فما حضرتُ لها لكن سمعت الصَّياح والندبِه

تقوم قصيدة الاعتذار عن قبول عمل الحسبة على وصف ساخر لما يراه من عمل المحتسب، ولما يتخيله في حال مباشرته لهذا العمل. والوصفان، الحقيقي والمتخيل، يفضيان إلى تهجين هذا العمل أو طريقة أدائه في أيامه. فتخيل جلوسه في السوق، والناس يهرعون إليه، فيضرب هذا، ويشتم هذا، وشبه عمله بعمل مرقص الدبة، وهو تشبيه ساخر يحط من عمل الحسبة.

ووصف موكب المحتسب القائم بعمله وهو يمشي في السوق، يحيط به الصغار، ويتبعه غلام غبي، يفسح له الطريق، ويضرب الناس بدرته الصلبة. وهذا المشهد الساخر هجاء واضح للمحتسب المستقدم من دمشق في علبه. ولم يكتف الشاعر بهذا الوصف المزري للمحتسب، فالتفت إلى ذكر مثالبه المتعلقة بشخصه وعمله، فوصفه بالجهل وبالتظاهر بخلاف ما هو عليه، وشبهه بالبرغوث الذي يريد محاكاة الأسد في وثبته، وشتان بين الأسود والبراغيث في الشأن والأثر. وأبدع الشاعر في الجمع بين الغرق المعنوي في الجهل والغرق المادي في الماء، فظلت سره المحتسب وركبته ظاهرتين مثلما ظل جهله ظاهرًا، وكذلك في المثل الذي ضربه عن الخضاب المنحسر عن اللحية والمظهر لحقيقتها. وهذا كله وصف ساخر أقامه على التشبيهات المهجنة والأمثال الكاشفة للحقيقة.

واختتم البوصيري وصفه الساخر بحكاية مجملة عن واقعة جرت للمحتسب مع نسوة في المقبرة، كثر فيها الصياح والندبة. وربما أراد المحتسب صد النسوة عن زيارة المقبرة، فلقى منهن ما يحط من قيمته ويسقط هيئته.

أراد البوصيري الاعتذار عن قبول عمل الحسبة بتهجين صاحبها، فعمد إلى التصوير الساخر الذي يضحك الناس من المحتسب ويسقطه ويؤذيه، فقدم نصًا شعريًا ممتعًا

ومفيدًا. جاء الإمتاع من الطريقة التي أدى بها مراده، وهي الوصف الساخر والتشبيه المهجن والسرد الموحى. وجاءت الفائدة من تقديم معلومات عن الحسبة في أيامه وطريقة القيام بأعمالها.

واعتمد البوصيري على التشبيه في أداء سخريته، فأقام علاقات بين أشياء متباعدة للتقبيح والازدراء والتهوين قبل الإيضاح والتبين. فتشبيهه المحتسب بالبرغوث ازدراء وتهوين لشأنه، ووصف عمل الحسبة بالكلب يلحق الكلبة في السوق تحقير لعمل الحسبة ما بعده تحقير، وكذلك تشبيهه الدهر في قوله:³⁴

والدهر يرفع أطرافا كما رفعت أذناها لقضاء الحاجة البقر

يرتفع بعض الناس إلى مكانة عالية لا يستحقونها، ويصلون إليها بطرائق ملتوية وفي غفلة من المجتمع، وهذا يغيب أهل الفضل، فيصبون نعمتهم على الزمان، ومنهم البوصيري الذي شبه الأطراف أو الجهلة الذين رفعهم الدهر بأذنا البقر المرفوعة عند قضاء الحاجة، فرسم بهذا التشبيه منظرًا مفرزًا، فيه تهوين شديد واحتقار لهؤلاء الجهلة، وسخرية شديدة منهم.

وعرض في قصيد له برجل قربه ممدوحه، فشبّه هذا التقريب بقوله:³⁵

وابن عمران وهو شرّ متاعٍ للورى في بطانة وظهاره

حسن القرب منكم قبح ذكرا ه كتحسين المسك ذكراً لفاره

بحث البوصيري عن طريقة يشيد فيها بالممدوح ويهجو ابن عمران، فاهتدى إلى هذا التشبيه الغريب الذي يرفع الطرف الأول ويحط الطرف الثاني. وتبادر إلى ذهنه فأرة المسك، فحول معنى فأرة من الوعاء إلى القارض المقرز، فقد حسنت إضافة المسك إلى الفأرة ذكرها، وكذلك تقريب الممدوح لهذا الرجل، وفي ذلك تشبيه للممدوح بالمسك وتشبيهه لابن عمران بالفأر، وهذه سخرية مؤلمة.

³⁴- ديوان البوصيري: ص: 141.

³⁵- المصدر نفسه: ص: 131.

وافتن في قصيدته التي هاجم فيها المستخدمين في اقتناص التشبيهات الساخرة المعبرة، فبعد أن شبههم بالجاموس الذي يدر الحليب لكثرة ما أكلوه من أموال الناس، عاد وشبههم بالسوس في قوله:³⁶

الله أرسلهم على أقواتهم سوساً وقد أمنوا عليها السوسا

يكفي تشبيه المستخدمين بالسوس احتقاراً لهم، فضلاً عن السخرية من قرنهم بحشرة حقيرة مؤذية فقد أفاد البوصيري من التشبيه كثيراً، وكان عوناً له في السخرية الواخزة المؤلمة.

واتبع البوصيري طريقة القص والحوار في أداء سخريته، فكان يروي لممدوحه وقائع مضحكة جرت معه، وينقل في هذه الرواية حوار أبطال القصة، وغالباً ما يأتي الحوار ساخراً في مضمونه وأسلوبه، مثل قوله:³⁷

ويوم زارت أمهم أختها	والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها	وصبرها معي على العسر
قالت لها: كيف تكون النساء	كذا مع الأزواج يا غرّه
قومي اطلبي حقك منه بلا	تخالف منك ولا فتره
وإن تآبى فخذني ذقنه	ثم انتقيها شعرة شعره
قالت لها: ما عادتي هكذا	فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة	طأقتني، قالت لها: بعره
فهونت قدي في نفسها	فجاءت الزوجة مُحتره
فاسـتـقبلتني فهـدّدتها	فاسـتـقبلت رأسي بأجره
وباتت الفتنة ما بيننا	من أول الليل إلى بكره

³⁶- المصدر نفسه: ص: 172.

³⁷- المصدر نفسه: ص: 167.

هذه قصة شعرية، فيها الأحداث والحبكة، وفيها الأبطال والحوار، وفيها الزمان والمكان، وفيها الغاية المرادة من سردها، وهي إظهار فقره واستدراار عطف ممدوحه، لكنه وصل إلى هذه الغاية بالفكاهة والسخرية من نفسه، فأدخل البهجة على نفس ممدوحه على الرغم من أنه يشكو سوء حاله ونكده في بيته.

وأوضح الحوار الموقف، وزاده سخرية، وخاصة حديث الزوجة مع أختها، وعمقت الألفاظ المستخدمة في الحوار السخرية، مثل (انتقي ذقنه) و(بعره) و(آجره).

وأنطق في قصصه وحوارياته الجماد والحيوان، ليعطي للسخرية واقعية مفترضة، مثل قوله على لسان مسجد:³⁸

ليت شعري ما مقتضى حرمانى	دون غيري والإلف للرحمن
أترانني لا أستحق لكوني	جامعا شمل قارئ القرآن
أم لكوني في إثر كل صلاة	بي يُدعى لدولة السلطان
وبأي الأسباب يُعطى مكان	صدقات السلطان دون مكان
آه واضيعة المساكين إن وُلّي	أمر الطعام في رمضان

إن إدراج الشكوى على لسان المسجد أبلغ وأشد تأثيراً في المتلقي. واستخدام السخرية في حديث المسجد يُبعد الشكوى عن الضجر، ويكسبها طرافة، وخاصة في هذا الجدل المؤدى بالتساؤل الإنكاري، والمنتهي بالتأوه والتوجع للخوف من أن يتولى صاحب صدقات المساجد طعام المساكين في رمضان، لأنه عندها سيميتهم جوعاً، فالسرقة طبع عنده. وبهذا الحديث الساخر للمسجد نال البوصيري من صاحب صدقات المساجد، وأظهره بمظهر المخالف للشرع.

وروى في القصيدة التي عرّض فيها بابن عمار قصة بغلته التي أوقعته، وأنطقها بهجائه، فقال:³⁹

³⁸- ديوان البوصيري: ص: 260.

³⁹- المصدر نفسه: ص: 132.

قالت البغلة التي أوقعته أنا مالي على الغبون مراره⁴⁰
 إن هذا شيخ له بجواربي — له مع الناس كل يوم صهاره
 قلت: ما تكرهين منه؟ فقالت: أي بخل فيه وأي قتاره⁴¹
 أنا في البيت أشتهي كفّ تبني ومن القَرط أشتهي نُواره⁴²
 لا تلوموا إذا وقعت من الجو ع فإني من الخوى خواره⁴³
 عيرتني بها بغال الطواحي — من وقالت: تمّت عليك العياره

أنطق البوصيري البغلة بهجاء الرجل والسخرية منه، وقدمها بصورة إحدى نسائه، وأقام معها حوارًا يكشف بخل الرجل ومثاليه. وجمع في قصيدته بين حاجات البشر وطبائعهم وحاجات الحيوانات وطبائعها، واستخدم طرائق التعبير الشعبي والعبارات المفصحة التي يستخدمها العامة، وقد خففت السخرية من وقع الهجاء الفاحش الذي أجراه على لسان البغلة، واتهمه فيه بفساد دينه وعرضه. وجاء حديث البغلة من حديث البشر، فأضفى عليها الوعي والمعرفة، وأنطقها بما يريد، ومن هنا جاءت المفارقة وجاءت السخرية التي تبعث على الابتسام، فقد تصبح هذه القصيدة حديث الناس، يواجهون بها الرجل كلما شاهدوه.

واستخدم هذه الطريقة في السخرية من نفسه، حين أعار أتانه لأمير فاحتفظ الأمير بها، وأرسل ثمنها إلى البوصيري، لكن الشاعر لم يعجبه هذا الأمر، فنظم على لسان أتانته قوله:⁴⁴

⁴⁰ تخطف الف (أنا) لتصبح فتحة فيستقيم الوزن

⁴¹ قتاره: من قتر: اقتصد وبخل.

⁴² القَرط: النبات الأخضر، نواره: زهره، أو ما نضج من النبات.

⁴³ الخوى: الخلو من الطعام، خواره: ضعيفة

⁴⁴ ديوان البوصيري: ص: 237.

يا أيها السيد الذي شهدت ألفاظه لي بأنه فاضلٌ
 ألم أكن قد أخذت عارية من شرطها أن تُردّ في العاجل
 ما كان مثلي يُعيره أحد قط ولكن سيدي جاهل
 لو جرّ سوه عليّ من سَفَه لقلت غيظاً عليه: يستاهل⁴⁵
 وبعد هذا فما يحلُّ لكم ملكي فإني من سيدي حامل

أفاد البوصيري من ثقافته الفقهية في هذا الجدل الذي أجراه على لسان أتانته، وجعلها جارية حاملاً من سيدها، فأعطى السخرية مداها، وقدم للمدوحه ما يطرفه ويسره، وإن انتقص نفسه، فأعاد الأمير الأتان وترك له ثمنها، فضلاً عن ذلك أتت السخرية من المفارقة بين الحديث المثقف وقائله.

والمفارقة بين المتقارنين وسيلة أخرى من وسائل السخرية عند البوصيري، فبين الكلام وصاحبه مفارقة، وبين مكانة الشاعر وما يقدمه عن نفسه مفارقة، وبين صفة المهجو الدينية وسلوكه مفارقة، وبين المفترض بالمستخدم وواقع عمله مفارقة، مثل قوله من قصيدته في هجاء المستخدمين:⁴⁶

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعدما نتقوا ذقونا

إن المفارقة بين طلوع لحي ومنتف أخرى تقود إلى تصور ساخر، وكأن المستخدمين ينتقون لحي الناس ويضعونها على ذقونهم. والأمر كله إشارة إلى أن المستخدمين يعيشون في بحبوحة، لأنهم سلبوا الناس مصادر عيشهم. ووصل بالمفارقة إلى منتهاها عندما قال حين حلق أمير نصف لحية بعض الرجال:⁴⁷

⁴⁵- التجريس: عقوبة يظهر فيها المعاقب بهيئة مزرية.

⁴⁶- ديوان البوصيري: ص: 266.

⁴⁷- المصدر نفسه: ص: 175.

ثم قالوا عن ذقون خلقت قلت: لأبْدَ لها أن تُخلفا
 إن حلق الذقن خير للفتى يا بني الأعمام من أن تُنتفا
 والذي حلق أنصاف اللحى كان في الأحكام عدلا منصفا
 حلق النصف بذنب حاضر وعفا بالنصف عما سلفا

وقد علق محقق الديوان على هذه الأبيات بقوله:⁴⁸

(فانظر إلى هذه السخرية التي أصاب بها الشاعر الحاكم، فجعله عادلاً، لأنه لم يأمر بخلق اللحية كلها. وهذا إمعان في التكيل.. فما كان من البوصيري إلا أن قلب القضية، فجعل الإفراط في الظلم منتهى العدل، والقسوة رحمة والإساءة إحساناً. ولهذا النوع من السخرية وقع عظيم في النفس...).

فقد اتبع البوصيري مغالطة واضحة في سخريته، وإن أقامها على حقائق في البداية، فما يُخلق من الشعر سيخلف وينبت مرة أخرى، والحلق خير من النتف الذي لا يخلف، لكن حلق نصف الذقن إهانة شديدة، حاول الشاعر تهوينها وتسويغها، فأضحك الناس من المعاقبين، وكان الأولى أن يرثي لهم.

أسلوبه في السخرية:

يلاحظ بوضوح أن أسلوب البوصيري في سخريته يختلف عن أسلوبه في مدائحه النبوية وشعره الديني، فانسجم شعره هناك بالجزالة والفخامة والقوة ومضارعة القدماء في ألفاظهم وتراكيبهم مع شيء من الإغراب في وصف مشاهد الحجاز مع استخدام الألفاظ والمصطلحات الدينية، والميل إلى الألفاظ الطنانة التي تجعل القصائد ملائمة للإشاد. لكننا نجد أسلوبه في قصائد السخرية بسيطاً واضحاً، يقترب من كلام العامة، ويخف إيقاعه لكثرة السرد والحوار فيه، مثل قوله:⁴⁹

قالت لها: كيف تكون النسا كذا مع الأزواج يا غيرة
 قالت لها: ما عادتي هكذا فإن زوجي عنده ضجرة

⁴⁸- ديوان البوصيري: ص: 44.

⁴⁹- المصدر نفسه: ص: 167.

ومال في شعره الساخر نحو الشعبية في العبارات والألفاظ، ولم يتحرّج من ذكر الألفاظ السخيفة، وكأن السخرية في عصره لا تتم إلا بالأسلوب الشعبي المبسط، لأن عناصرها مستمدة من البيئة، سواء في ذلك المعاني أو الصور التي ينقلها الشاعر بألفاظها مع تقريبها من الفصحى، فيشعر المتلقي أنه يستمع في حوارهِ إلى اثنين من عامة الناس، مثل قوله:⁵⁰

أبت النفس أن تُطيع وقالت: إن حبي لا يدخل القنينة

قالت: اضربْ عن وصل مثلي صفحا واضرب الخلّ أو يصير طحينة

فكلمة قنينة (قارورة) كلمة شعبية جارية على ألسنة الناس، وكذلك عبارة (يدخل القنينة) والمثل الشعبي (اضرب الخلّ أو يصير طحينة) من العبارات الشعبية المتداولة، وكلتا العبارتين تعنيان الاستحالة.

وكثير من ألفاظ شعره الساخر وقوافيه مستمدة من حديث الناس، مثل (كلية، رُكبة، علبه، الترية، حماره). وربما طوع اللفظة لمقتضى القافية، ليأتي التعبير شعبياً، مثل قوله على لسان بغلته:⁵¹

عيرتني بها بغال الطواحيـ من وقالت: تمّت عليك العياره

ومع قلة ألفاظ السخف في شعره، إلّا أنّها أساءت إليه، مثل دعائه للطبيب بقوله:⁵²

جزاك ربي إذا انسهلت بما شربت عن كل خريّة حسنه

فالبساطة والميل إلى الشعبية سمة واضحة في شعر البوصيري الساخر.

إن السخرية في شعر البوصيري تنسجم مع واقعه، وإن كانت مستغربة من شاعر المدائح النبوية الأول في الشعر العربي، وكأن البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنه كان يعاني ازدواج الشخصية، نراه شيخاً متصوّفاً في قسم من شعره، ونراه هازئاً

⁵⁰ - المصدر نفسه: ص: 276.

⁵¹ - ديوان البوصيري: ص: 133.

⁵² - المصدر نفسه: ص: 277.

ساحراً في قسم آخر. وربما عاد هذا الازدواج إلى أنه أخفق في أعماله لفقده الانسجام مع الناس، وأخفق في تصوفه لأنَّ طبيعة نفسه لا تحتمل تجمُّع التصوف، ولا تتفق روح الدعابة عنده مع الالتزام الديني الشديد، ولا يمكن لشاعر هجاء سليط اللسان كثير الطلب أن يكون متصوفاً مستغرقاً في التصوف مع أن شعره الديني ينطلق من منطلق التصوف.

وكأن الشاعر كان يعاني شيئاً من الاغتراب لإخفاقه في إقامة علاقات سوية مع الناس من حوله، فدفعه هذا الشعور إلى التصوف والسخرية معاً. التصوف يعبر عن نكوصه عن مواجهة مشكلاته وعجزه عن تحقيق مأربه، والسخرية تعبر عن رغبته في الانتقام من مجتمعه وممن آذاه فيه.

المصادر والمراجع:

1. ديوان البوصيري: تحقيق محمد سيد كيلاني، ط2، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة 1973م.
2. الدرر الكامنة: لابن حجر العسقلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
3. شفاء الغليل: للخفاجي، تصحيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط1، مكتبة القاهرة، 1952م.
4. فوات الوفيات: لابن شاکر الکتني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
5. المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1996م.
6. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
7. المنهل الصافي: لابن تغري بردي، تحقيق: أحمد نجاتي، ط1، دار الكتاب، القاهرة.
8. الوافي بالوفيات: للصفدي، تحقيق: مجموعة المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت.